

خصوصية الطريق التاريخية لتطور الأدب الروسي من القرن العاشر وحتى الربع الأول من القرن الثامن

ت: عياد عيد

ينتمي الأدب الروسي القديم إلى صنف خاص من الأدب – هو أدب القرون الوسطى. ثمة بعض الأشياء المشتركة بين كينونة المؤلفات الأدبية الروسية القديمة والنتائج الفولكلورية.

لم يكن لمؤلفات الأدب الروسي القديم في القسم الأكبر منها نص تألّفي مستقر. كانت الصياغات الجديدة والأشكال الجديدة لهذه المؤلفات تظهر استجابة للمتطلبات الجديدة التي طرحها الحياة باستمرار، أو تشترطها التبدلات في الذائقات الأدبية. وهنا تكمن «حيوية» المؤلفات الأدبية الروسية القديمة. بعضها قرئ وأعيدت كتابته خلال قرون عدة. وبعضها الآخر سرعان ما اختفى، لكن الأجزاء التي حظيت بالإعجاب أدخلت في بنية مؤلفات أخرى، إذ لم يكن الإحساس بملكية المؤلفات قد تطور بعد إلى حد يسمح معه بحماية النص المؤلف من التعديلات أو من الاقتباس منه ضمن مؤلفات أخرى.

تتجلى العمومية مع الفولكلور في أمر آخر. فكما في الفولكلور كذلك في الأدب الروسي القديم تحتل «الأمكنة العامة» مكانة خاصة. لا تسعى المؤلفات الأدبية إلى إدهاش القارئ بما هو جديد، بل على العكس، تهدئه

و«تفتنه» بما هو مألوف. حين يضع المؤلف عمله الأدبي فإنه يبدو وكأنه يقوم بطقس ما، ويشارك في منسك. يروي كل شيء في أشكال مراسمية مطابقة للمعايير وتليق بما يرويه. فيمتدح ويذم ما هو متبع مدحه وذمه. ويضفي على تبجيلاته وانتقاصاته كلها شكلاً أخلاقياً يلائم الحدث. لذلك فإن نص المؤلفات الأدبية هو، في قسمه الأكبر، نص خال من المفاجآت. وهذه المفاجآت غير مرغوب فيها مثلما هي غير مرغوب فيها في أي مراسم وفي أي طقوس.

الأدب – الطقس. إنه يُلبس الموضوعَ حلته الأدبية المطابقة. وهذا لا يقربه وحسب من الفولكلور بل يؤدي، كما يحدث في الفولكلور، إلى نوع خاص من ارتجالية الإبداع الأدبي الروسي القديم، وإلى جماعيته وتقليديته.

كلما كان المؤلف أشد صرامة في اتباع تقاليد المراسم الأدبية، صار سهلاً عليه إنشاء أكثر فأكثر من المؤلفات الجديدة في إطار هذه التقليدية. بالنتيجة فإن المؤلفات الأدبية في روسيا القديمة لا تفصل بينها حدود صارمة، وغير مترسخة بتصورات دقيقة عن الملكية الأدبية، وهي تكرر بقدر معين الأشكال المعتادة، فتبدو وكأنها تتمتع بشيء من «الحيوية» الانسيابية في العملية الأدبية العامة، ليس فقط بـ «انمحاء» حدود التعاقب الزمني، بل ببعض الصعوبة في تعقب التبدلات فيها. العملية الأدبية في الفترة بين القرن الحادي عشر والسابع عشر صعب تحديد معالمها وتعريفها.

لكن ثمة في العملية التاريخية الأدبية تلك بضع جوانب لا تصعب عملية تعقبها بل تسهّلها أيضاً. الذي يسهل مراقبتنا لتطور الأدب الروسي هو قبل كل شيء ارتباطه بالعملية التاريخية – أي التاريخية القروسطية للأدب الروسي القديم المتجلية تجلياً حاداً.

بماذا تتلخص هذه «التاريخية القروسطية»؟ تتلخص قبل كل شيء في أن التعميم الفني في بلاد الروس القديمة يتم في الغالبية الساحقة من الأحوال على أساس هذه الواقعة التاريخية أو تلك. المؤلفات الجديدة في أدب بلاد الروس القديمة ملتصقة دائماً بحدث تاريخي محدد، وبشخصية

تاريخية محددة. إنها روايات عن المعارك (الانتصارات والهزائم)، وعن جرائم الأمراء، وعن الحج إلى الأراضي المقدسة (فلسطين)، وإلى القسطنطينية، وعن الناس – القديسين في الغالب، وعن قادة العسكر الأمراء. ثمة أيضاً روايات عن الأيقونات وعن بناء الكنائس، وعن العجائب التي يؤمنون بها، وعن الظواهر التي يقال إنها حدثت. لكن قل ما كانت تخرج مؤلفات جديدة عن موضوعات مختلفة اختلاقاً واضحاً. الاختلاق كذب، وأي كذب من وجهة النظر القروسطية غير مسموح به. تكتسب الموضوعات المختلفة على تربة روسية (مثلاً، موضوعات العَبَر) مسحة تاريخية، وتنزع إلى أن تلتصق بهذه الشخصيات أو الأحداث التاريخية أو تلك. حتى الواعظون كانوا في غالبيتهم يتجنبون الاستعارات والخرافات.

يتوافق الأدب مع التاريخ بتيار هائل، ويسير في أعقابهِ. الفجوة بين الحدث وأول نتاج أدبي عنه نادراً ما تكون كبيرة. تعدّل المؤلفات اللاحقة المؤلفات الأولى وتعيد تركيبها، لكنها نادراً ما تلقي إضاءة جديدة تماماً على الأحداث. يُسندُ الكُتّاب مؤلفاتهم بوثائق خوفاً من الكذب، ويعدون الكتابات السابقة كلها بمثابة الوثيقة.

الأدب – شاهد على الحياة. لهذا السبب يحدد التاريخ نفسه بدرجة معينة تصنيف الأدب مراحلياً، أما الوثيقة الرئيسية من بين الوثائق عن الواقع - أي الحوالياً - فهي التي تؤدي دور الركيزة الرئيسية للباحث من أجل تأريخ الآثار الأدبية زمنياً.

إن تواريخ الحوالياً هي معالم مهمة في تاريخ الأدب. ومنذ أن راحوا يشركون تاريخ الحوالياً في تاريخ الأدب الروسي في الفترة بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر، صارت ممكنة^(١) أيضاً الدراسة التاريخية

(١) جرى ذلك أول مرة على نطاق واسع في المجلدين الأولين من «تاريخ الأدب الروسي» متعدد الأجزاء الصادر عن معهد الأدب الروسي في أكاديمية العلوم السوفيتية بين عامي ١٩٤١ –

للآثار الأدبية، على الأقل تلك المرتبطة منها بالحوليات مباشرة أو على نحو موارب.

ترتبط «التاريخية القروسطية» للأدب الروسي في الفترة بين القرنين الحادي عشر والسابع عشر بسمة مهمة أخرى استمرت في الأدب الروسي حتى أيامنا هذه وهي – الشعور الوطني.

صار الكاتب الروسي المدعو إلى التمتع في الواقع والالتزام به وتقويمه ينظر إلى جهده على أنه خدمة لبلده الأم. امتاز الأدب الروسي دائماً بجدية خاصة، فحاول أن يجيب عن أسئلة الحياة الأساسية، ودعا إلى إعادة تكوين هذه الحياة، واحتوى في طياته مثلاً متنوعة، لكنها سامية دائماً. وكان الكتاب الروس في أحيان غير نادرة، إذ ينتقدون الواقع، يسيرون على دروب مفروشة بالعذاب. صار العمل الأدبي إنجازاً عظيماً لنيكون كاتب الحوليات في القرن الحادي عشر، الذي اضطر إلى الهرب من غضب الأمير إيزياسلاف إلى مدينة تموتوروكان النائية وكان الأدب أيضاً إنجازاً عظيماً لنسطور. وكان الأمير فلاديمير مونوماخ نفسه يرشد الأمراء الروس لا بنشاطه السياسي المباشر وحسب، بل بعمله الأدبي الشهير أيضاً «إرشادات للأولاد» ورسالته إلى الأمير أوليغ سفياتوسلافيتش. وكان راعياً لكتابة الحوليات وسير القديسين. وكان الأدب عملاً كبيراً لشخص يدعى فاسيلي في بداية القرن الثاني عشر، وضع رواية فاضحة عن أمراء أعموا بصر فاسيليوك تيريوفلسكي. ظهرت على امتداد القرنين الثاني عشر والثالث عشر سلسلة طويلة من المؤلفات التي تفضح صراعات الأمراء تارة، وتدعوهم تارة إلى الدفاع المتين عن الأرض الروسية، وتندب تارة الهزائم، وتدين جرائم الأمراء. لم تكن الوطنية السامية في الأدب الروسي في تلك القرون مرتبطة وحسب بالاعتزاز بالأرض الروسية، بل بالأسى تجاه الهزائم التي تعرضت لها، أو السلبات الاجتماعية فيها، مع السعي إلى إعادة الأمراء

والإقطاعيين إلى جادة الصواب وأحياناً، محاولة إدانتهم وإثارة غضب القارئ على السيئين منهم.

لقد تركت الروح الوطنية المكنونة في الأدب الروسي أثراً عميقاً في الحقبة الممتدة بين القرنين الحادي عشر والسابع عشر: ثمة هنا مؤلفات تدعو إلى إعادة تشكيل مجمل بناء الحياة الروسية، وهي مؤلفات لبيريسفيتوف ویرملای یرازم؛ وهنا أيضاً مؤلفات مكسيم غريك التربوية. تدعو الحوليات والسرديات التاريخية إلى الدفاع الفاعل عن الأرض الروسية من الأعداء.

يمسك بالريشة هراطقة نوفغورود وموسكو، ويكتب القيصر نفسه وعده الأمير كوربسكي، وفي القرن السابع عشر يقتزن نشاط أواموكم ويبيفان الأدبي بالاستشهاد في سبيل العقيدة.

يحمل الكتاب الروس جميعهم على كواهلهم، وكل منهم بطريقته، واجبه الكتّابي. يغدو كل منهم إلى حد ما نبياً فضّاحاً، وبعضهم منوراً، ينشر المعارف ويؤوّل الواقع، ومشاركاً فاعلاً ووطنياً سامياً في الحياة الأهلية في البلاد.

لقد ظلت رسالة الكتاب السامية هذه مستمرة في الأزمنة الجديدة أيضاً. ما يحرك الأدب هو إحساس مؤلفيه العالي بالمسؤولية الاجتماعية. إنه ممتلئ بالحب الفعلي للوطن. وهو خاصيته المستمرة على امتداد وجوده.

كيف يمكن وضع التقسيم المراحلّي لتاريخ الأدب الروسي بين القرنين الحادي عشر والسابع عشر؟ التغيرات الأدبية تتطابق على نحو أساسي مع التغيرات التاريخية.

الفترة الأولى - فترة وحدة الأدب النسبية. يتطور الأدب فيها في مركزين - في الجنوب في كييف، وفي الشمال في نوفغورود. وتمتد من الربع الأول من القرن الحادي عشر لتشمل بداية القرن الثاني عشر. إنه قرن الأسلوب الفخيم monumental، في الأدب، قرن سير الحيوانات الروسية الأولى- سير بوريس وغليب، ونساک الکھوف الکیيفية من أمثال

أنتوني وفيوديسي وأول أثر لتدوين الحوليات - «رواية سنوات الأزمنة». إنه قرن دولة كييف - نوفغورود الروسية القديمة الموحدة.

الفترة الثانية - من بداية القرن الثاني عشر حتى الربع الأول من القرن الثالث عشر - هي فترة الظهور المتنامي للمراكز الأدبية الجديدة: فلاديمير - زاليسكي، وسوزدال، ورسstof وسمولينسك، وغاليتش وفلاديمير - فولينسكي؛ تظهر فيها في الأدب ملامح وموضوعات محلية، وتتنوع الأجناس الأدبية، ويدخل في الأدب تيار قوي يعنى بالهم اليومي، والقضايا الاجتماعية الملحة. إنها فترة بداية التجزؤ الإقطاعي.

تبدو فترة الاجتياح المنغولي التتري القصيرة الممتدة من منتصف القرن الثالث عشر وحتى منتصف القرن الرابع عشر فترة مميزة، حين بدأت تكتب قصص عن غزو الجيوش المنغولية التتريّة: عن المعركة في كالك، وعن سقوط فلاديمير - زاليسكي، «كلمة عن موت الأرض الروسية»، و«حياة ألكسندر نيفسكي». يتقلص الأدب إلى موضوع واحد - موضوع الاجتياح المنغولي التتري، لكن هذا الموضوع يتبدى بشدة غير عادية، وتكتسب ملامح الأسلوب الفخيم التي صبغت الفترة السابقة مسحة مأساوية واستنهاض غنائي للمشاعر الوطنية السامية.

الفترة التالية - من نهاية القرن الرابع عشر والنصف الأول من القرن الخامس عشر - وهو قرن ما قبل البعث، المتزامن مع انبعاث الأرض الروسية الاقتصادي والثقافي في المرحلة التي سبقت معركة كوليكوفسك عام ١٣٨٠ وتلتها مباشرة. إنها فترة الأسلوب التعبيري - الانفعالي والنهوض الوطني في الأدب، فترة بعث تدوين الحوليات والأخبار التاريخية، وسير القديسين المدائح، والعودة إلى زمن استقلال بلاد الروس في نواحي الثقافة كلها: في الأدب، وفن العمارة، والفن التشكيلي، والفولكلور، والفكر السياسي وما شابه.

اتسم النصف الثاني من القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر بالتطور العاصف في الفكر الاجتماعي والكتابة الاجتماعية. ويتصف هذا وذاك بالإيمان النهضوي بقوة العقل، وقوة الكلمة والمعتقدات، وبعقلانية الطبيعة و- البحث عن الإصلاحات. لكن،

ومع ذلك، لم يتكون عصر نهضة في روسيا. وسبب ذلك كان سقوط المدينتين - الكومونتين نوفغورود وبسكوف وقمع المارقين وامتصاص القوى الروحية كلها من أجل البناء المتوتر للدولة المركزية الواحدة. ثم تلي ذلك (النصف الثاني من القرن السادس عشر) فترة يختل فيها التطور «الطبيعي» للأدب. حيث امتص تنظيم الدولة المركزية الروسية الواحدة القوى الروحية الأساسية لدى الشعب. لقد كُبحَت الحركة نحو البعث. تتطور في الأدب الدراسات الاجتماعية؛ وتأخذ سياسة الدولة الداخلية وإعادة بناء المجتمع تشغل أكثر فأكثر اهتمام الكاتب والقارئ. ينعكس التيار الرسمي بشدة متزايدة في الأدب. يحل زمن «التفخيمية الثانية»: تسود الأشكال التقليدية في الأدب وتقمع البدايات الفردية وتطور الأدب الحكائي القصصي (belles letters) فيه.

القرن السابع عشر هو قرن الانتقال إلى أدب الزمن الحديث. إنه قرن تطور البدايات الفردية في كل شيء: في الكاتب نفسه وفي إبداعه؛ قرن تطور الأذواق والأساليب الفردية والأنماط، والمهنية الكتابية والإحساس بحقوق التأليف، والاحتجاج الفردي الشخصي المرتبط بالتقلبات المأساوية في مسيرة حياة الكاتب والبداية الفردية في الشخصيات المجسدة في المؤلفات الأدبية. إن البداية الشخصية تمكن من ظهور شعر الإيقاع المقطعي (syllabic) والمسرح المنتظم.

يلتصق تماماً بهذا «القرن الانتقالي» عهد التحولات البطرسية - هذا العهد الذي واصل في حدود معروفة وختم عملية الانتقال إلى نوع الأدب الجديد- أدب الزمن الحديث.

على امتداد القرنين السادس عشر والسابع عشر وقسم من الثامن عشر راحت تكشف عن ذاتها في روسيا ظواهر بعثية متفرقة: تطور البداية الفردية في الإبداع، التحرر التدريجي للشخصية من سيطرة الفئوية القروسطية - لكن عهد بعثٍ متكامل لم يمر على روسيا. كان ثمة «بعث متباطئ»، لأن الانتقال من زمن القرون الوسطى إلى الزمن الحديث لا يمكن أن يتم بغير ظواهر بعثية. بفضل البعث المتباطئ والمكبوح

اكتسبت جميع المظاهر البعثية في بلاد الروس حيوية خاصة. صارت شخصية الإنسان محور العملية الأدبية.

القرون الأولى من الأدب الذي ننظر فيه هي في الحقيقة قرون الأدب الروسي القديم بين القرن الحادي عشر والقرن الثالث عشر. تنتمي إلى هذه الفترة وحدة السلافية الشرقية التي لم تكن بعد قد جُزئت. بغض النظر عن أين تكونت المؤلفات المستقلة - في نوفغورود أو كييف أو روستوف أو فلاديمير - فولينسك أو غاليتش أو توروف، فإنها انتشرت في جميع الأراضي السلافية الشرقية ودخلت في تكوين أدب واحد نستطيع أن نعهده في الحقيقة أدباً روسياً قديماً (سمت القبائل السلافية الشرقية نفسها «روسية»)، لكن للتمييز عن الروس - أبناء روسيا العظمى فإننا نفضل الحديث عنها على أنها قبائل روسية قديمة، وأن نسمي أدبها الأدب الروسي القديم).

ابتداء من القرن السادس عشر حلت فترة التكون التدريجي لخصوصيات ثلاث قوميات سلافية شرقية: روسيا العظمى، وأوكرانيا وبيلاروسيا.

بدأت تتكون تقاليد أدبية خاصة لدى كل من هذه الشعوب السلافية الشرقية الشقيقة، لكننا لا نستطيع الحديث عن أدب روسي قديم وأدب أوكراني قديم وأدب بيلاروسي قديم إلا مع حلول القرن السادس عشر. ومع حلول القرن السابع عشر كانت قد تشكلت خصوصياتها القومية نهائياً.

إذا سمينا الآن أدب روسيا العظمى القديم بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر أدباً روسياً قديماً كما جرت العادة، فإن هذه التسمية ليست سوى فرض من فروض التقاليد المتكون منذ القديم. من الصعب الآن وضع مصطلحات جديدة، وتغيير العادات اللغوية وإكساب الكلمات «غير الثابتة» (مثل كلمة «أدب روسيا العظمى») معنى راسخاً.

طبعاً، ليس ثمة حاجة، لا بل ليس ثمة قدرة على الحديث في تاريخ الأدب عن جميع الآثار التي وجدت في بلاد الروس القديمة. ومن الطبيعي أن ينتج أننا في الغالب نتكلم على تلك الإنتاجات التي مازالت تهمنا حتى اليوم، وعلى تلك التي تدخل في تكوين إرثنا الأدبي العظيم، وعلى تلك التي نعرفها أكثر ما نعرف ونفهمها أكثر ما نفهم ونستطيع الوصول إليها. سوف يحدث في أثناء ذلك بعض التشويه في الهدف لكنه تشويه جائز به ولا يمكن تجنبه. ■